عبد الكريم الخطيب

إعجاز القرآن

# الإعجاز في دراسات السابقين

دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها

الطبعة الاولى ١٩٧٤

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

« الحمدُ للهِ ربِّ العالمين . . الرحمنِ الرحيمِ . . مالكِ يومِ الدينِ . . إيَّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ . . إهدنا الصراطَ المستقيمَ . . صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهمْ . . غيرِ المغضوبِ عليهم ، ولا الضالّين . . »

* * *

أما بعد . . فإن للقرآن الكريم على المسلمين حقاً لم يرعوْه حق رعايته منذ عصور مضت ، وأمانة لم يؤدوها على وجهها منذ أزمنة خلت ، فلقد قصروا فى رعاية هذا الحق ، وفرطوا فى أداء هذه الأمانة . . ثم لقد كان حسابهم على هذا التقصير وهذا التفريط ، حسابا معجلا فى هذه الدنيا ، قبل حسابهم الطويل العسير المؤجل ليوم الحساب . . يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وإنه ما أخلى المسلمون مكانهم من قيادة ركب الحياة ، على طريق الحق ، والعزة — إلا بعد أن تراخت أيديهم عن التمسك بكتاب الله ، وإلا بعد أن عزلوا أنفسهم أو كادوا يعزلونها عن الحياة فى ظل من هدى هذا الكتاب .

وتاريخ المسلمين مع القرآن الكريم يشهد لذلك شهادة قائمة على هذا الحساب . . مقدرة بهذا التقدير ، جارية معه ، طرداً وعكساً .

فإنه على قدر ما كان يقترب المسلمون من كتابهم الكريم ، وبقدر ما كانوا

يرعون حقه ، ويؤدون أمانته — كان نصيبهم من الخير ، وكان حظهم من السلامة والأمن . . فى أنفسهم ، وأموالهم ، وأوطانهم ، وكان مكانهم من العزة والسيادة فى المجتمع البشرى .

والعكس صحيح . . فإنه على قدر ما كان يبعد المسلمون عن كتابهم ، وبقدر ما يفرطون فى حقه ، ويستخفون بشأنه — كان بعدهم من الخير ، وكان ابتعادهم من السلامة والأمن ، وكان وضعهم الحرج المضطرب بين الأمم !

وليس هذا شأن المسلمين وحدهم . . بل هو شأن كل من يُدْعى إلى الحق فيلقاه معرضاً ، أو يصحبه على دخَل وجفاء !

وفى واقع الحياة وعلى مسرح أحداثها كثير من المثُلات والعبر .

بنو إسرائيل مثلاً . . .

أطعمهم الله خير طعام ، تشتهيه النفس ، وتطيب معه الحياة . . فأنزل عليهم المنّ والسلوى . . يجدونه حيث يشاءون ، حاضراً عتيداً بين أيديهم ، لا يتكلفون له جهداً ، ولا يبذلون من أجله دانقاً ، أو درهما .

ومع هذا . . فقد عافت نفوسهم هذا الطعام الطيب الكريم ، المنزل من السماء ، المحفوف بالرحمات والبركات ، وأبت نفوسهم الملتوية الخبيثة إلا أن تضع فمها على التراب ، وأن ترعى مع الأنعام ، وتأكل مما يأكل الحيوان ! وقد كشف القرآن الكريم هذا الموقف اللئيم الذى وقفوه إزاء هذه النعمة الكريمة . . حيث يقول الله تعالى :

« وإذْ قلتمْ يا موسى . . لنْ نصبرْ عَلى طعامٍ واحـدٍ . . فادعُ لنَا ربكَ يخـرجْ لنَا ممَّا تنبتُ الأرضُ . . منْ بقلهَـا وقثَّائهـا

وفومها[١] ، وعدسها وبصلها . . قال : أتستبدلونَ الذى هوَ أدنى بالذى هوَ خيرٌ ؟ اهبطُوا مصراً فإنَّ لكمْ ما سألتمْ ، وضربتْ عليهمُ الذلةُ والمسكنةُ وباءوا بغضبٍ منَ اللهِ »[٢] .

وقد هبطوا المصر — وهو المدينة — فهبطوا هبوطاً مادياً ومعنوياً معاً . . فضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله !

فهذه مائدة كانت ممدودة لهم من السماء . . وكان جديراً بالقوم أن يجتمعوا إليها ، وأن يشدوا أيديهم وقلوبهم عليها . . ولو أنهم فعلوا ما زايلهم هذا الخير أبداً ، ولعاشت فيه أجيالهم جيلا بعد جيل ، يطعمون من هذا الطعام الطيب ، الذى تصفو عليه النفوس ، كما تصح عليه الأبدان .

ومن يدرى ؟ . . فلعله لو ذهب بنو إسرائيل بالتجربة إلى غايتها لتغير وجه الحياة الإنسانية بهم ، ولظهرت فى الحياة سلالات بشرية لا تحمل «معدة» الحيوان ، ولا بهيمية البهائم . . ولكن الله بالغ أمره !

« قدْ جعلَ اللهُ لكلِّ شيءٍ قدْراً[٣] » .

فبدل الله نعمة القوم نقمة ، وضربهم بالذلة والمسكنة ، فما استقام لهم وجه فى الحياة ، ولا كان لهم فيها من زاد إلا السحت الخبيث من الطعام . .

« واتلُ عليهمْ نبأ الذى آتيناهُ آياتنا ، فانسلخَ منْها فأتبعهُ الشيطانُ فكانَ منَ الغاوينَ . . . ولوْ شئْنا لرفعناهُ بها ، ولكنهُ أخلدَ إلى الأرْض ، واتبعَ هواهُ . . . فمثلهُ كمثلِ الكلبِ . . إنْ تحملْ عليهِ يلهثْ

---

(١) الفوم : الحنطة .

(٢) سوره البقرة : آية ٦١

(٣) سورة الطلاق : آية ٣

أوْ تتركهُ يلهث »(١) .

ونحن — المسلمين — ماذا كان منا فى شأن القرآن الذى بين أيدينا ؟

لقد أنزله الله علينا مائدة من السماء . . مائدة حافلة بالطيبات من الرزق ، محملة بالكريم الغدق من النعم !

ذلكم هو « القرآن الكريم » الذى وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« وننزّلُ من القرآنِ ماهوَ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ »(٢) وقوله تبارك اسمه: « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً »(٣) ، وقوله جلّ شأنه : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »(٤) وقوله عزّ من قائل : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون »(٥) .

والذى يقول فيه النبي ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إن هذا القرآن أنزل آمراً وزاجراً وسنة خالية ، ومثلاً مضروباً ، فيه نبأكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحُكمُ ما بينكم ، لا يُخلقه طول الردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلَج ، ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أُجر ، ومن تمسك به هُدى إلى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين . . عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه . . . » . . ويقول فيه : « القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته » .

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٥ ، ١٧٦ . (٢) الإسراء : آية ٨٢ .

(٣) سورة الإسراء : آية ٩ (٤) سورة ص : آية ٢٩

(٥) سورة الزخرف : آية ٤٤

فالقرآن الكريم مأدبة الله، ومأدبة الله هذه.. تحمل الشفاء والرحمة، كما تحدّث الآية الكريمة بهذا، عن القرآن الكريم.

وإن هذه المائدة التي أعدها الله للمسلمين ليست على شاكلة تلك المائدة التي أنزلها على بني إسرائيل، طعاما يغذى الأجسام، ويشبع البطون!

وإنما المائدة الممدودة للمسلمين، مائدة يتغذى منها العقل والروح، فتتخلّق منها ملكات علوية، ووجدانات ربانية، بها يسمو الإنسان، ويعلو، وبها يرتفع على هذا الضعف الإنساني الكامن فيه، وينتصر على هذه النزعات الحيوانية المندسّة في كيانه.

ولهذا يقول الرسول الكريم عن تلك المائدة الكريمة: « فتعلموا من مأدبته » ولم يقل — صلوات الله وسلامه عليه — « فكلوا من مأدبته ».. ذلك لأن القرآن مأدبة علم وحكمة وخُلق.. وليس مأدبة معدة، ولا طعام بطون!!

وانظر كيف رفع الله سبحانه وتعالى، قدْر هذه الأمة وأعلى شأنها، وكيف جعل غذاءها السماوي الذي أنزله عليها، غذاء يتصل بالعقل والروح، ولم يجعله فيما يساق إلى البطن والمعدة! وفي ذلك ما فيه من كرامة وتكريم لهذه الأمة، التي تتلو القرآن وتدين بالإسلام، وتأخذ بحظها من هذا المقام العظيم الذي أقامها الله تعالى فيه، ويخاطبها الحق سبحانه بقوله:

« كنتمْ خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ، وتنهوْنَ عنِ المنكرِ، وتؤمنونَ باللهِ »[1].

---

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠

فمن شأن القرآن الكريم أن يقيم المتصلين به على طريق الحق ، فيأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله . . .

إن الذى يستقيم على دعوة القرآن ، لهو إنسان سليم ، مُعافًى فى نفسه ، ثم هو مع ذلك قادر على أن يحمل الهدى والخير إلى غيره ، فيأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويكون خليفة الله فى الأرض ، وخليفة الرسول فى الدعوة إلى الله !

ولكن صحبة المسلمين للقرآن ، لم تكن صحبة كريمة قائمة على العدل والإحسان فى جميع الأحوال . . فكثيرا ما أساء المسلمون هذه الصحبة ، وأوسعوها جفاء وعقوقا . . يعيش القرآن فيهم غريباً ، لا يقفون عنده ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يتلقون بعض ما فيه من خير وهدى ! وكأنهم لم يتلوا من آيات القرآن هذه الآية الزاجرة: « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »[1] .

وليس حال المسلمين — مع القرآن — فى كثير من الأحوال — بأحسن من حال بنى إسرائيل مع ما أنزل الله عليهم من المنّ والسلوى ، ومع ما فَضَل به عليهم من نعم كانت تساق إليهم مع كل نبىّ !

***

وإذا كان بنو إسرائيل قد عافوا هذا الطعام السماوى الطيب ، واستبدلوا به ما تنبت الأرض ، فإن المسلمين قد زهدوا فيما حمل القرآن إليهم من رحمة وهدى ، ومن أحكام وتعاليم ، فعافوا هذا كله ، وولوا وجوههم إلى ما أخرجت الأرض من ضلالات وسفاهات ، فهاموا بها ، وعاشوا فيها ، وأبوا أن يرتفعوا إلى المنزلة الكريمة التى دعاهم الله إليها . . وكانت عاقبة أمرهم أن جفتهم الحياة ، وأنزلتهم

---

(١) سورة محمد : آية ٢٤

منها هذا المنزل الدُّون . . وأخذتهم البأساء والضراء ، فأخلوْا مقامهم الذى كانوا قد رُفعوا إليه ، يوم تلقوْا القرآن من يدى الرسول الكريم ، وأُشربوا فى قلوبهم حُبَّه ، والاستظلال به .

وهكذا كان شأن المسلمين فى كل دور من أدوار حياتهم . . كلما عافوا هذا الطعام السماوى ، وهاموا على وجوههم ، يطعمون مما ترمى به الحياة إليهم من زَبدها وغُثائها — هانوا . وذلّوا . . وكلما نظروا فى كتاب الله واستقاموا على هديه ؛ رشدوا ، وعلوْا ، وكانوا خلفاء الله فى الأرض ، وعادوا إلى مقامهم الذى دعاهم الله تعالى إليه ، ووعدهم به ، فى قوله سبحانه :

« وعدَ اللهُ الذينَ آمنُوا منكمْ وعمِلوا الصالحاتِ ليستخلفنهمْ فى الأرضِ كما استخلفَ الذينَ من قبلِهمْ ، وليُمكننَّ لهمْ دينهمُ الذى ارتضَى لهمْ ، وليُبدلنهمْ من بعدِ خوفهمْ أمناً ... »(١) .

والجفوة التى بين المسلمين وبين القرآن الكريم جفوة غليظة مستحكمة . . قد تظاهرت عليها دواع كثيرة أحكمت بنيانها ، وثبتت دعائمها ، فلم يَعُد بين المسلمين وبين القرآن طريق يصلهم به ، إلا تلك الطرق الدارسة الطامسة ، التى تتصاعد منها أتربة وأدخنة ، تعمِّى على الناظر فى كتاب الله وجوهَ الحق والخير الذى فيه .

* * *

والجفوة القائمة بين المسلمين وبين كتاب الله الذى فى أيديهم ، قد تظاهرت عليها دواع كثيرة — كما أشرنا من قبل — منها هذا الضعف البادى فيهم منذ تركوا كتاب الله ، ونسوا اليوم الذى تركوه فيه ، أو تناسوه ، ثم نظروا فوجدوا أنهم — وهم محسوبون

---

(١) سورة النور : آية ٥٥

على القرآن — قد تخلفوا عن ركب الحياة ، وأن القرآن لم يَخِفّ للأخذ بيدهم ،
ثم كان أن اتخذ أعداء الإسلام والمتربصون به — اتخذوا من هذه المشاعر مدخلاً يدخلون به إلى ضعاف الإيمان ، فأكدوا عندهم هذه المشاعر الجافية للقرآن ، وصرخوا فى آذانهم أن التمسوا غير القرآن داعياً تدعونه لاستنقاذكم ! وإذ لم تجد هذه الصرخات آذاناً كثيرة تستمع إليها ، وتستجيب لها — جاءوا لحرب القرآن من جهة أخرى ، وهى اللغة العربية التى هى ترجمان آيات الله ، يقطعون الصلة بينها وبين أهلها ، ومن ثَمّ يقطعون الطريق بين المؤمنين وبين كتاب الله بطمس معالم اللغة الناطقة به . . وقد وجدت تلك الدعوة كثيرين من المستجيبين لها فى غير تحرج أو تأثم ، إذ كان فى حساب هؤلاء المستجيبين أن اللغة لا صلة لها بالدين ، وأنه إذا صح أن يتحرج المرء فى أمور دينه ، فإنه لا يصح أن يتحرج فى أمور لغته ! وما درى هؤلاء الأغرار المخدوعون أنه لا طريق لهم إلى دين الله، إلا عن كتاب الله ، وأنه لا سبيل للاتصال بكتاب الله إلا عن طريق اللغة التى نزل بها . . وما دَرَوْا أنهم وقد استخفوا باللغة العربية وتهاونوا فى شأنها ، قد استخفوا بدينهم ، واعتزلوا أو كادوا يعتزلون طريقه ! !

* * *

إن كل حظ المسلمين من القرآن اليوم هو حظهم من مخلفات الآباء والأجداد مما تضمه المتاحف ودور الآثار . . يزورونها لماماً ، ويطرقونها حيناً بعد حين . . . قد تثير فيهم نشوة عارضة ، أو تبعث فيهم عزة كاذبة . . ينفضونها من نفوسهم قبل أن يزايلوا المزارة ، كما ينفضون ما قد يكون علق على ثيابهم من التراب وهم يجوسون خلال الديار ! . . هذا إذا كان معهم من المشاعر ما يدعوهم إلى لقاء كتاب الله ، ولو على أزمان متباعدة ! !

فنحن نُلمّ بالقرآن إلماماً ، ونلقاه حيناً بعد حين . . وقد نذكر به ما نذكر من

مواعظَ وزواجر . . ثم لا نلبث حتى ننخلع عن ذلك قبل أن نضع المصحف من أيدينا ، لنلقى الحياة ، ونختلط بها ، كما نحن ؛ على الوجه الذى كنا نصحبها به ، ونعيش معها عليه !

فما يحدّث به القرآن شيء . . وحياتنا التى نحياها ونتقلب فيها شيء آخر . . بعيد كل البعد عن القرآن ، وما يتحدث به القرآن .

إن المسلم يعيش فى هذه الحياة بشخصية « مزدوجة » ويلقاها بنفس منقسمة على نفسها . . ! ولهذا كان مسيره فيها مختلجاً مضطرباً . . تتماوج أبعاضه بين مشرق ومغرب ، وشمال وجنوب . . فهو يتحرك فى مكانه حركة متماوجة . . فلا يتقدم خطوة إلى الأمام على كثرة هذا الضرب المضطرب فى الأرض !

فالمسلم حين يلتقى بكتاب الله يذكر الإسلام ، وشريعة الإسلام ، وتنتصب لعينيه مثل رفيعة كريمة للحياة الإنسانية الكريمة الرفيعة ، يهفو إليها قلبه ، وتتحرك لها نوازعه ، وتنطلق نحوها آماله . . ولكنه حين يزايل هذا الموقف ، ويدخل معترك الحياة مع الناس ، ويضطرب فيما يضطربون فيه ، لا يجد شيئاً مما كان فيه مع القرآن ، من مُثُل ، ونوازع ، وآمال . . وإذا هو إنسان غير هذا الإنسان الذى كان مع القرآن منذ قليل . . . إنسان كأن لم يعرف القرآن ولم يعرفه القرآن . . وهكذا يظل المسلم فى أحسن أحواله سائراً فى هذين الاتجاهين المتضادين . . بل المتنازعين المتخاصمين . . وهذه حال أشبه بحال « المنافقين » فى مقام الإيمان ! ! ليسوا مؤمنين وليسوا كافرين . . والنفاق شر من الكفر . . إذ لا يُرجى لصاحب النفاق استقامة على طريق ، ولا رجعة إلى حق . .

أما صاحب الكفر فإنه قد يتجه إلى الإيمان يوماً ، وقد يتفتح قلبه للخير

والهدى ، بعد أن يلجّ فى الغىّ والضلال .. ولهذا توعد الله المنافقين بما لم يتوعد به الكافرين ، فقال تعالى :

« إنَّ المنافقينَ فى الدركِ الأسفلِ منَ النَّارِ ولن تجدَهمْ نصيراً »(١) .

وقالَ : « وعدَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والكفارَ نارَ جهنمَ »(٢) .

فقدمهم فى هذا المقام الكريه على الكفار ، وجعلهم قادة هذا الركب الضالّ المساق إلى عذاب السعير !

وإن المسلم ليحيا فى هذه الحياة الدنيا على نفاق مع نفسه .. إذ يلقى كتابَ الله بوجه ، ثم يلقى الحياة والناس بوجه ، أو بوجوه ... ! فانظر أى حال تلك الحال ، وقدّر أى مصير يصير إليه أهلها ! !

* * *

ولم يؤتَ المسلمون فى دينهم من نقص قد ظهر لهم فى هذا الدين ، أو عيب بدا لهم منه ، فخف ميزانه فى نفوسهم ، وضمر وجوده فى كيانهم .. ليس لشىء من هذا دخل على المسلمين ما دخل عليهم فيما بينهم وبين دينهم من نفور وجفاء .. فالمسلم — أى مسلم — أحرص ما يكون على دينه ، وأكثر ما يكون تعلقاً به ، وذكراً له ، وحديثاً عنه ، وغيرةً عليه .. ولكنه مع هذا مغلوب على أمره فى الدفاع عن هذه المشاعر الضاغطة عليه ، وفى الاحتفاظ بتلك الأحاسيس ، التى يحملها فى كيانه من جهة الدين .. إنه لا يكاد يلقى الحياة حتى تغرب شخوص هذه المعالم الدينية من نفسه ، وتولّى الأدبار .. وهو يرقبها فى ألم وحسرة ، ويشيعها فى وجيعة وكمد ! !

والسبب فى هذا يرجع — فى تقديرنا — إلى تَميُّع العقيدة الدينية فى نفس

(١) سورة المائدة : آية ١٤٥ (٢) سورة التوبة آية : ٦٨

المسلم ، وإلى اختلاط كثير من مسائلها فى تفكيره ، وعدم وضوح المعالم والحدود لكثير من أمور الدين عنده ، وذلك لأمور كثيرة منها :

**أولا :** هذه الخلافات السياسية والمذهبية التى وقعت بين المسلمين منذ أعقاب الخلافة ، الراشدة فانعكست آثارها على المسائل الدينية التى تشكل منها الفقه الإسلامى ، فجاءت تلك المسائل على وجوه كثيرة متناقضة متضاربة ، يلطم بعضها وجه بعض ، بحجج تسندها آية أو آيات من كتاب الله ، متأولة على غير وجهها ، أو حديث ضعيف ، أو أثر مكذوب . . فتجد كلّ هذه الأقوال منطقاً يقيمها ، وذكاءً يدارى عُوارها ، بما دخل على المسلمين من مذاهب الجدل والسفسطة منذ قيام الدولة العباسية . . وكان من هذا أن تشعبت مسائل الدين بين الطوائف المختلفة ، التى انقسمت كل طائفة منها على نفسها ، فكانت فرقاً تبلغ المئات عداً . . وقد ذهبت كل فرقة فى الدين مذهباً ، وأقامت لمذهبها حجته من كتاب الله وسنة رسوله ! ! . وهذا هو أفدح مافى الأمر ، وأشنع مافى هذا الخلاف . . فالمسألة الواحدة من مسائل الدين تأخذ دورة طويلة لا تنتهى ، فلا يكاد المسلم يمسك منها بطرف حتى تجره جرًّا إلى مسائل كثيرة تتولد منها ، وتتفرع ، وإذا هو أمام صورة « مهزوزة » تتراقص أمام عينيه كما يتراقص الشبح فى ضوء مصباح ، عبثت بذبالته الريح فى يوم عاصف ! وإذا هو على مشاعر ومفاهيم مختلفة عن مشاعر الجماعة ، وإذا كل فرد فى المجتمع الإسلامى أمة وحده ، فى فهمه لدينه ، وفى إقامة سلوكه عليه . . وصدق الشاعر العربى ، الذى ساءته تلك الحال فقال واصفاً لها :

كنّا أناساً على دين ففرقنا ... قرعُ الكلام وخلط الجدّ باللعب
ما كان أغنى رجالا ضل سعيهمُ ... عن الجدال وأغناهم عن الخطب

**ثانيا :** التعويل على هذا الفقه الذى تولد من تلك الخلافات المذهبية والسياسية ،

تعويلا تامًّا ، وربط المسلمين به ربطاً محكما ، حتى لقد أصبح عند كثير من علماء المسلمين وفقهائهم أنه هو دستور الشريعة الإسلامية وترجمان كتابها الكريم - وكان من هذا أن أصبح أكثر العلماء والفقهاء متعلّقاً بهذا الفقه، أكثر من التعلق بكتاب الله . . فهم يرجعون إلى مقولات المذهب أو المذاهب الفقهية ، فى كل أمر يعرض لهم ، وفى كل داعية من دواعى الحياة ، يُراد للدين أن يزنها بميزانه ، ويقيسها بأحكامه ! فإذا خرج رأى دينى من محصَّل هذا النظر فى أقوال المذاهب الفقهية خرج مذعوراً قلقاً ، يموج فى أخلاط من الآراء المتناقضة ، والأقوال المتخالفة . . لايكاد المرء يعرف منها أين وجهه وأين ظهره !

من أجل هذا «تميعت» مسائل الدين،وغامت فى أنظار المسلمين ، فهم يُطيفون بها فى إجلال وتقديس . . أشبه بإجلال المجهول وتقديسه . . لا يقوم فى النفس مقاما ثابتاً مطمئنا أبدا ، بل سرعان مايذهب ذلك الشبح الباهت ، إذا طلع عليه بصيص من نور ، أو لمعة من سراب !

والقرآن ، هو مصدر الشريعة الإسلامية ، وهو دستورها القائم أبدَ الدهر .. وقد استغنى به المسلمون فى الصدر الأول للإسلام فأغناهم عن كل شىء ، لايمدون أبصارهم إلى غيره ، ولا يأخذون لدينهم ودنياهم إلا بما توحى به إليهم كلماته ، وتومىء به إليهم آياته .

وطبيعى أن هذا القول الذى نقوله فى كتاب الله ، نقوله أيضاً فيما ثبت من سنة الرسول الكريم القولية والفعلية . . إذ كانت السنة المطهرة تطبيقا شارحا للكتاب الكريم :

«وَما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا» (١) .

* * *

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

ولا يستقيم هذا القول الذى نقوله : بأن القرآن هو مصدر التشريع الإسلامى إلا بفهم سليم صحيح لكتاب الله ، ولا يكون هذا الفهم السليم الصحيح إلا عن طول تأمل وتدبر لكتاب الله ، وتذوق لأساليب بيانه ، ووقوف على بعض أسراره . من طول المدارسة للغة العربية ، وفقه أساليبها ..

وبهذا الفهم لكتاب الله يتحقق لنا أمران :

أولهما : تصوير مسائل الدين تصويرا واضحاً دقيقاً محدداً ، بلا ذيول ، ولا معلقات .. وبهذا يعرف المسلم الحكم قاطعاً فيما أحلّ الله وما حرّم .

وثانيهما : جعل مسائل الدين واقعة فى مفهوم المسلمين ، واضحة فى تصورهم ، إن لم يكن ذلك لهم جميعاً ، فللجمهرة العظمى فيهم ، حيث تُعرَض مسائل الدين فى كلمات يسيرة ، مفهومة ، لاتتجاوز آية كريمة من آيات الله ، فإن احتاجت إلى شرح ، فلا يتجاوز ذلك أكثر من بضع كلمات تزاد عليها ..

وبهذا يتصل المسلم اتصالا مباشراً بدينه ، وبهذا يرى الأمور ويقيسها بعينيه هو ، لا بعينى غيره ، ممن يذهب به كل مذهب ، ويسلك به كل طريق ، فلا يدرى أين مذهبه ، ولا أين طريقه ! .. إنه ـ حينئذ ـ يكون هو الذى يقيم الرأى لنفسه ، بما أراه الله فى كتابه .. وبهذا يعرف المسلم وجه طريقه فى الحياة ، ويستقيم عليه .

* * *

من أجل هذا ـ كان هذا البحث ، الذى لايعدو أن يكون نظرات فى كتاب الله ، تتمثل فيها مفاهيم المسلمين للقرآن الكريم ، على اختلاف وجهات نظارهم ،

وتغاير أزمانهم ، وثقافاتهم . . وقد استقبلنا هذه النظرات جميعها بنظر خاص لنا ، أجريناه معها ، وجعلناه فى حسابها ، راجين أن يزداد به العلم الذى تستبين به معالم الطريق إلى كتاب الله ، وإلى تدبر آياته ، وفهمها فهما يقيم فى كيان المسلم إيمانا راسخا بها ، ووازعا قويا ملهماً ، وإذا هو من كتاب الله ، فى حراسة أمينة ، وفى نهار مبصر .. فلا يضلّ ولا يشقى ..

* * *

وإذن ، فنحن الآن مقدمون على البحث فى كتاب الله ، متجهون إلى النظر فى أسراره وعجائبه .. فما طريقنا إليه ؟ وما وجهة نظرنا فيه ؟

والحق أن طريقنا هنا متشعب المسالك ، مختلف آفاق النظر .. وإن كان كل مسالك ، يسلك بنا إليه ، وكل أفق ، يصلنا به ، ويدنينا منه . . إذ القرآن بالمقام الذى يجمع المسالك كلها ، ويعلو على الآفاق جميعها .. وهذا من شأنه أن ييسر أمرنا وأن يعسّره معا .. فأمرنا مع القرآن سهل ميسور إذا نحن قصدنا قصداً واحداً منه ، وأخذنا سبيلا واحدة إليه .. ولكن هذا الأمر مرهق أشد الإرهاق عسير غاية العسر ، إذا نحن مددنا البصر إلى كل أفق من آفاق القرآن ، وأطمعنا النفس فى كل خير من خيره . . هنالك يكون الجرى اللاهث ، والعدو الذى تتقطع به الأنفاس على مدى العمر .. ثم لا يكون ذلك إلا خطوة قصيرة فى هذا الكون العظيم الذى لا حدود له :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا »(١) .

ولهذا فإنه من الحق أن نقرر هنا ـ أنه ربما كان من عيوب هذا البحث ،

---

(١) سورة الكهف : آية ١٠٩

أو من حسناته ، لا أدرى — أنه لم يواجه الموضوع مواجهة مباشرة . . بل جعل يطوف حوله — مدانياً ومباعداً — تطوافا طويلا ، استنفد كثيراً من الوقت ، وكثيراً من الجهد ، الأمر الذى ربما يكون قد تحيف الموضوع الأصلى ، وأدخل الضيم عليه .. !

* * *

وأحسب أن الأمر يحتاج إلى إيضاح وتجلية .. إن الحقائق التى تضمها الفنون الجميلة — كفن القول ، والنحت ، والتمثيل ، والتصوير ، والموسيقى — هذه الحقائق لا تظهر على مسرح الحياة فى العمل الفنىّ واضحة المعالم والحدود ، كما هو الشأن فى الحقائق العلمية . . ولكنها أشبه بالأطياف ، تلوح وتختفى ، وتروح وتغدو ، وتقرب وتبعد . . لا يستطيع أحد أن يستولى عليها جملة ، ويضمها إليه جميعاً . . وإنما غاية ما ينال منها لمحات خاطفة ، وإشارات لامحة ، ومنطق هامس خافت ، لا يكاد يبين .

هكذا شأن الحقائق الفنية . . ليست حقائق خالصة ، وإنما هى حقائق وظلال . . أو هى ظلال تتحرك فى أحشائها حقائق ، كما تتحرك الأجِنّـة فى الأرحام ! ! .

فالذى يطلب الحقيقة الفنية لا يبلغ شيئاً منها، إلا إذا سار إليها من خلال هذه الظلال ، ببصيرة نافذة ، ووجدان يقظ ، وحس مرهف ... فتلك هى وسائله التى يتخطّى بها مواقع الحقيقة ، وتلك هى الأصابع التى تشير له إلى مطالعها ، وترفع له بعض أستارها ، ليرى ما يستطيع أن يرى من مفاتنها وسحرها !

* * *

والإعجاز القرآنى حقيقة الحقائق ، ولبّ لبابها . .

قد أودعه الله سبحانه وتعالى فى كلمات نُظمت نظم الدر المكنون ، فكانت قلائد من البيان الربانى العربى !

فهل فى مقدور إنسان يطلب هذه الحقيقة الكبرى أن يلقاها لقاءاً مباشراً ، وأن يهجم عليها بلا استئذان أو استئناس ؟

إن ذلك مقام مهيب جليل كريم . . تقوم دونه حجب وأستار ، من الرهبة والروعة والجلال . . ! فإذا لم يكن الساعى إلى هذا المقام الكريم المهيب على شىء غير قليل من الكياسة والتلطف ، والتأدب — لم ير إلا أبواباً مغلقة دونه ، ولم يظفر بغير الرد والحرمان .

لهذا — ونحن نحرص على أن نطالع وجه الإعجاز ، وأن نملأ العين والقلب منه — فقد جئنا إليه مترفقين ، متلطفين ، نبسط يد الضراعة والرجاء ، عسى أن يُفتح لنا ، فنقف حيث نرى ونشهد ، أو يؤذَن لنا لندخل ، حيث نطعم ، ونتزود !

وندع هذا المجاز من القول ، إلى الحقيقة ، ونتجاوز هذا الضرب من التلميح إلى التصريح . . فنقول :

إن لقاءنا مع إعجاز القرآن لن يكون إلا بعد أن ننظر نظرات كثيرة هنا وهناك . . نظرات نَزُود بها الطريق ، ونستأنس بما يقع لنا فى طريقنا من معالم ومعارف . . حتى إذا دانينا الغاية لم نجد وحشة ، ولم تتقطع بنا السبل !

وقد كان من تدبيرنا فى هذا أن جعلنا طريقنا إلى الإعجاز مراحل . . كل مرحلة منها تعتبر مدخلا إلى الإعجاز ، وطريقاً قاصداً إليه ، يدنينا منه ، ويصلنا به !

وعلى هذا جاء الكتاب عدة مباحث . . لا مبحثاً واحداً . . وكان دخولنا إليه من أكثر من باب ! مع مدخل ندخل به إلى تلك الأبواب . .

**فالباب الأول:** كان : « نظرة فى كلام الله . . وكلام الناس » وكان غايتنا من هـذه النظرة الـكشف عن معدن الـكلام القرآنى . . ولم انفرد عن سائر الـكلام ، مع أنه لم يخرج عن أنه كلام مما يجرى على ألسنة العباد ؟

وقد جعلنا هـذا الباب فى صدر الـكتاب ، ليرى القارىء الذى يصحبنا فى هذا البحث ، أى كلام هذا الذى جعله الله قرآنا ، وليشهد مطالع من وجوه هذا الـكلام ، يأنس إليها قبل أن يلتقى مع وجوه الإعجاز فى القرآن .

**وأما الباب الثانى** : فقد جعلناه : « المعجزة . . فى زمانها ومكانها » . . إذ كان لابد من الـكشف عن وجه الحـكمة فى اختيار الجزيرة العربية موطناً للرسالة الإسلامية ، وتخير العرب ولسان العرب لحمل هذه الرسالة . . ثم : هل هناك حكمة فى توقيت الرسالة بهذا الوقت الذى جاءت فيه ؟

كل هذا كان لابد من الإجابة عليه . . فإذا استبان ذلك كان فيه شاهد حق على أن الرسالة ليست من تدبير بشر ، ولا من تقدير إنسان . .

**والباب الثالث** : « آراء ومباحث .. فى الإعجاز » . . حيث عرضنا هنا وجوهاً من آراء الباحثين فى الإعجاز ، منذ بدأ التأليف فيه ، إلى اليوم ، وذلك لنتبين فى هذا العرض ، المفاهيم المختلفة التى وقعت فى قلوب الناس وعقولهم ، للقرآن الـكريم ، وكيف كانت هـذه المفاهيم خاضعة للمؤثرات الذاتية التى تقع للناس من أزمانهم ، وأحوالهم ، وثقافاتهم . . فنحن نلتقى فى هذا الباب بوجوه كثيرة من الناس ، كما نلتقى بوجوه كثيرة مختلفة من الآراء ، والمفاهيم ، ومن مختلف هذه الوجوه وتلك المفاهيم ترتسم لنا صورة للإعجاز القرآنى، فى سيره مع الحياة ، خلال تلك القرون المتطاولة .

**والباب الرابع** : أخذ هذا العنوان : « شبهات ، ودعاوى ومفتريات » . . إذ كان لابد بعد أن ندفع تلك الشبهات ، وندمغ تلك الدعاوى والمفتريات التى أريدَ لها أن تغشى حِمَى القرآن ، وأن تثير غباراً فى سمائه الصافية ، لتحجب أضواءه ، وتعمّى الطريق على أتباعه والمتجهين إليه . ( وهذا ما تضمنه الكتاب الأول من كتابى الإعجاز ) .

**أما الباب الخامس والسادس** فقد جعلناهما مجالا لنظرتنا الخاصة فى كتاب الله ، تلك النظرة التى نرود فيها الإعجاز ومواقعه ، على قدر طاقتنا ، وعلى ما يسمح به فهمنا ، وذلك بعد أن عرضنا وجوه الإعجاز عند السلف ، ونظرتهم إليها ، وبعد أن دفعنا تلك الشبهات والدعاوى والمفتريات التى أريد — عن قصد أو جهل — إلصاقها بكتاب الله . .

وكان أحد البابين ( الباب الخامس ) نظراً مقصوراً على الإعجاز كما يبدو من مطالعة الأحداث ، التى لابست الدعوة ، وصاحبت نزول القرآن ، واستدعى الحال والمقام نزول ما نزل من الآيات حسب كل حال ومقام . . فكان عنوان هذا الباب : « الإعجاز . . فى منطق الأحداث » .

أما الباب الآخر وهو : ( الباب السادس ) فقد كان نظراً مواجهاً لمواقع الإعجاز ، والاستدلال على تلك المواقع بما تحمل كلمات الكتاب الكريم وآياته ، من دلائل ناطقة ، وحجج دامغة ، على أن هذا الكلام ليس مما يستطيعه البشر ، ولو اجتمعوا له ، ولهذا كان عنوان هذا الباب : « مواقع الإعجاز . . فى القرآن » .

**وأما الباب السابع** والأخير فقد جعلناه استقبالا لما يتضوع من آيات الله من نفحات زكية ، وما يترقرق على محياها الكريم من نور وألَق . . فما كان فى وقوفنا فى هذا الباب معاناة تفكير ، وتحديق نظر ، وإنما كان وقوفا خاشعاً ،